السنة: السابعة المجلد: 07 العدد:01 ص ص:42- 59
ISSN 2543-375X EISSN2676-1645

موقع إدوارد سعيد في الدراسات ما بعد الكولونيالية ودوره في تفعيل الأمن الثقافي

Position of Edward Said in post-colonial studies and his role in activating cultural security

إخلاف بن ايديري*، جامعة عبد الرحمان ميرة – بجاية
ikhlef _enraje @yahoo.fr

تاريخ الاستلام: **2021/04/29** تاريخ القبول: **2021/09/24**

ملخص:

يعتبر المفكر الفلسطيني إدوارد وديع سعيد من الركائز الأساسية للدراسات ما بعد الكولونيالية خاصة بعد ظهور كتابه المعنون بـ: "الاستشراق" الصادر عام 1978، فهو من النصوص الرزينة التي أرست قواعد هذه الدراسات فأعطى من خلال هذا الكتاب إشارة الانطلاق لها، وقد ساهم عدة مفكرين معاصرين في إثراء الدراسات ما بعد الكولونيالية وتشعبت وجهات النظر حولها بتعدد تلك الرؤى الفكرية، حيث تهتم هذه الدراسات بشكل عام بالإرث الاستعماري في البلاد المستعمرة سواء كان هذا الإرث ثقافي/ لغوي/ إيديولوجي/ اقتصادي/ سياسي/ ديني...، وسوف نحاول في بحثنا هذا التطرق إلى طبيعة الدراسات ما بعد الكولونيالية ونبحث من خلالها عن مكانة وموقع إدوارد سعيد فيها، ودوره الأساسي في تأسيسها، مبينين كيف استطاع أن يدافع عن الأمن الثقافي لشخصية الشرقي الذي تعرض لحملة تشويه مُمنهجة من طرف المؤسسة الاستشراقية الغربية، التي جعلته في مرتبة الدونية واللامفكر فيه؟ وقد عمل إدوارد سعيد عبر كتاباته النقدية الكثيرة على الكشف عن تهافت الرؤية الاستشراقية المتعالية التي تسعى إلى طمس الهوية الثقافية العربية الإسلامية.

* المؤلف المراسل

الكلمات المفتاحية: الدراسات ما بعد الكولونيالية – الاستشراق – إدوارد سعيد – الدراسات الثقافية – الأمن الثقافي.

Abstract:

The Palestinian thinker Edward Wadiaa Said is considered as one of the main pillars of post-colonial studies, especially after the publication of his most important book entitled: "Orientalism", in 1978. This accurate book set the foundations for these studies, and gave them a starting point. Several thinkers have contributed to the enrichment of these studies, creating a panorama of views depending on each one of them background. These studies are focused in general on the colonial heritage within the colonized countries, and this legacy is either cultural / linguistic / ideological / economic / political / or religious ..., We will try, in our research, to deal with the nature of post-colonial studies, and we will try to figure out the importance of Edward Said, and his main role in establishing this domain of studies, explaining how he was able to defend the cultural security of the eastern personality who has been subjected to a systematic smear campaign by the western orientalist foundation, that made him inferior and unthinkable? through his books, hi has worked to reveal the orientalist vision that seeks to obliterate the Arab-Islamic cultural identity.

Keywords: Post-colonial studies, Orientalism, Edward Said, Cultural Studies, Cultural security.

مقدمة:

استطاع ادوارد سعيد أن يلفت انتباه الباحثين المهتمين بحقل الدراسات الثقافية عبر عمله الجاد في التأسيس للدراسات ما بعد الكولونيالية خاصة بعد ظهور كتابه الأساس "الاستشراق" عام 1978، الذي كشف من خلاله عن البعد المخفي/ المستتر في الخطاب الاستشراقي الغربي، حيث فضح الرسائل الاستعلائية التي تنظر إلى الشرقي بدونية واستحقار، معتبرة إياه كائن لا يستطيع تمثيل نفسه فعلى الغربي أن يمثله. وهنا تظهر خطورة البعد الاستشراقي الذي يهدد الأمن الثقافي للمجتمعات العربية الإسلامية، حيث حاول المستشرق تقديم صورة نمطية عن الثقافة الشرقية بأنها بدائية وتغيب

عنها الحضارة والتمدن، وعلى الرجل الأبيض أن يفتح تلك المناطق الجغرافية حاملا إليها الحضارة. وفي مقالنا هذا سوف نحاول أن نبين موقع/مكانة إدوارد سعيد في حقل الدراسات ما بعد الكولونيالية ودوره الريادي في الدفاع عن الشرقي وأمنه الثقافي؟. منه فما هي أهم التيارات الفكرية التي تأثر بها إدوارد سعيد في تأسيسه للدراسات ما بعد الكولونيالية، وكيف فضح الخطاب الاستشراقي مبينا تهافت الرؤية الاستشراقية؟

1ـ مفهوم الأمن الثقافي

يرتبط مصطلح الأمن الثقافي بحياة الأفراد والمجتمعات وذلك بالشعور الفردي والجمعي بالأمن والطمأنينة تجاه هويتهم المشتركة وتطلعهم للحفاظ عليها من كل تهديد وتشويه يطيلها، فمفهوم الأمن الثقافي يكتسي أهمية كبيرة نظرا لارتباط الثقافة بالهوية وهي مكون أساسي في بنية الشخصية ويتأسس مفهوم الأمن الثقافي على جانبين، الأول يكتسي معنى بنائي/ تراكم بهذا المعنى يصبح الأمن مرادفا لعملية تحقيق الإشباع الذاتي من الحاجات الثقافية، بهذا النحو فالأمن الثقافي يستوجب لاكتفاء الذاتي الثقافي عبر تلبية حاجات المجتمع ورفع خطر العجز والخوف، فعلى هذا النحو يصبح الأمن الثقافي حالة إيجابية تدعو إلى التقدم والإبداع ولا يدعو إلى الارتكاس، فالأمن الثقافي مثله مثل الأمن الاقتصادي والأمن الغذائي، فيما تميل لفظة الثقافة إلى معنى يرادف الإبداع والانفتاح والتفاعل مع الأخر، تحيل لفظة الأمن إلى معنى يقارب الدفاع والتقوقع على الذات. من هذا المنطلق حين تبحث ثقافة عن أمنها، فهي تبحث عما يعزلها عن غيرها من الثقافات ما يؤدي إلى اختفائها من الوجود، هذا ما يمثل الجانب الثاني لمصطلح الأمن الثقافي، ويبقى مفهوم الأمن الثقافي يكتسي معنى بنائي تراكمي للدلالة على الإشباع الذاتي من اللوازم الثقافية فأمن هذه الثقافة هو مغالبة الندرة والحاجة، والقضاء على الخوف من زوال القيم الثقافية والرمزية التي تتطلع إلى تلبية مطالب المجتمع. (بوسعدية وحمود، 2017، ص ص 379- 380)

وقد سعت الحضارة الغربية إلى تسويق وتعميم الثقافة الغربية على باقي الأمم كنموذج وحيد، "باعتبارها النموذج الحداثي الذي أبدع الحداثة، ومن

ثم فرض الحضارة الغربية بكل مقوماتها على باقي الحضارات، وجعل العالم قرية واحدة، إلا أن ذلك أدى إلى ما عرف بصدام الحضارات والثقافات" (بوالسكك، 2021، ص 813)، وأمام هذا التحدي العالمي والصراع الثقافي أصبح الأمن الثقافي من المتطلبات الأساسية للحفاظ على الهوية الوطنية وضمان استمرارها.

2ـالدراسات ما بعد الكولونيالية

تعود الإرهاصات و"البداية الحقيقية للدراسات الثقافية، ودراسات ما بعد الكولونيالية في الغرب، في الثلث الأخير من القرن العشرين، وكانت طموحا لتجاوز فكرة النقد الأدبي، نحو نقد الثقافة التي تنتج الأدب. وقد تشكلت عبر نظرة الغرب إلى الشعوب التي استعمرها هذا الغرب، على أنها تحتل جزءا كبيرا من التجربة الغربية، وبرزت فيه مفاهيم مثل المثقف، والهجنة والتفوق والدونية، والعنف، وتفكيك الاستعمار، والهيمنة، والتذويت والسيطرة وسواها (النجار، 2008، ص10) وقد ذكرت الباحثة آنيا لومبا أن قاموس أكسفورد الإنكليزي (OED) عرف كلمة "كولونيا" الرومانية الأصل على أنها تعني "مزرعة" أو "مستوطنة" وذلك لإشارة للرومان الذين استقروا في بلدان أخرى ولكنهم احتفظوا بجنسيتهم ويقطن هذه المستوطنة في البلد الجديد مجموعة من الناس ويشكلون جماعة تخضع لدولتهم الأم أو تربطهم بها، وتلك الجماعة التي تشكلت على هذا النحو تتألف من مستوطنين محليين ومن نسلهم ما دامت العلاقة مع الدولة الأم مستمرة ومتواصلة.

وبناء على ما سبق فقد تعجبت الباحثة من هذا التعريف الذي تجنب تماما الإشارة إلى الناس الآخرين غير المستوطنين، فهو يخلو من أي تلميحات أو إشارة للقاء بين الشعوب أو لغزو وهيمنة وسيطرة على أراضي الغير (آنيا، 2013، ص17) بذلك تغيب المصداقية التاريخية التي تقتضي ذكر الطرف الثاني في المعادلة الاستعمارية وهم أصحاب الأرض المغتصبة من طرف الغزاة. وفي تعرف آخر لأحد الناقد الأسترالي بيل أشكروفت"Bill Ashcroft يرى أن هذه الدراسات تسعى إلى البحث في آثار الاستعمار على الثقافات والمجتمعات "(Ashcroft and Griffiths, 2006, P 168) من خلال هذا التعريف ربط

أشكروفت المستعمَر بالمستعمِر وبين مدى تأثير هذا الأخير على البنية الثقافية للمجتمعات الأصلانية.

حسب كريس باركر Chris Barker، فإن نظرية ما بعد الاستعمار يمكن تصنيفها ضمن النظريات النقدية التي تهتم بالظرف ما بعد الاستعماري، فهي تدرس العلاقات الاستعمارية وما ينتج عنها، فمصطلح "ما بعد الاستعمارية" يمكن فهمه على أنه يشير فقط إلى لحظة الحقبة الاستعمارية في فترة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ومع ذلك فقد يشير في الدراسات الثقافية إلى الخطاب الاستعماري نفسه ليشمل ذلك التعريف، "كما أن مفهوم ما بعد الاستعمار يشير إلى العالم أثناء/ وبعد الاستعمار الأوروبي، وعلى هذا تدرس نظرية ما بعد الاستعمار الحالة الخطابية لما بعد الاستعمار.

فالعلاقات الاستعمارية ونتائجها مشكلة من خلال عملية التمثيل. كما أن نظرية ما بعد الاستعمار تستكشف الخطاب ما بعد الاستعماري ومواقع الذات الخاصة به فيما يتعلق بمواضيع العرق، الأمة، الذاتية، السلطة، التابع، الهجنة الكريولية. أما الاهتمامان الرئيسيان لنظرية ما بعد الاستعمار فهما الهيمنة - التبعية والهجنة- الكريولية" (باركر، 2018، ص ص 364- 365)، وقد ظهر ما يعرف بالنقد ما بعد الاستعماري "وهو قيام أبناء البلدان التي تحررت من الاستعمار بإعادة النظر في التركة الاستعمارية، وهو ما يتجلى في آدابهم وما أتى به من مجالات جديدة للدراسات النقدية" (سعيد، 2006، ص 26)، فهذه الدراسات التي كتبها أبناء البلدان التي عاشت ويلات الاستعمار تعبر عن وجدانهم ومعاناتهم مع التركة الاستعمارية.

3ـ رواد الدراسات ما بعد الكولونيالية:

لقد ساهم العديد من المفكرين في وضع الأسس المتينة للدراسات ما بعد الكولونيالية عبر تجاربهم الكتابية في هذا الحقل المعرفي المرتبط بالوضع الاستعماري الذي عاشته بلدان العالم الثالث، وسوف نسلط الضوء على بعض الرواد الأساسيين على غرار فرانز فانون، وغتاري سبيفاك، وهومي بابا.

- **فرانز فانون**: يعتبر فانون من الرواد الأوائل المبشرين بالدراسات ما بعد الكولونيالية فقد كانت نصوصه الأولى كصفحات ملهمة للمفكرين الذين أتوا من بعده حيث يمكن اعتباره من الوجوه البارزة في حياتنا الحالية فهو من الرواد الأوائل للدراسات ما بعد الكولونيالية، والسبب يعود إلى أنه من السباقين إلى صياغة إشكالية تحرر الجسد والروح وهذا تحرر يكون في نفس الوقت سياسي ونفساني من جهة، وإبيستيمولوجي من جهة أخرى. (Renault, 2011, P131)

يعتبر كتابه الأساس "بشرة سوداء أقنعة بيضاء"، "Peau noir masques blancs"، من النصوص الأولى المبشرة بالدراسات ما بعد الكولونيالية، ففي هذا الكتاب يستعين فانون بعلم النفس لتحليل نفسية صاحب البشرة السوداء الذي يحاول الهروب من ارتباط السواد ببشرته، فعمد هذا الرجل الأسود إلى حل سحري بالاستعانة بالقناع الأبيض، ليوهم نفسه أنه ينتمي إلى فلك ذلك المجتمع فيصبح مغتربا في عالم غير عالمه وفضاء غريب عنه فيعش في قلق نفسي دائما يضعه في عالم الدونية مقارنة بعالم البيض.

فهذا الأبيض صاحب البشرة البيضاء حسب فانون يعيش بدوره في عالم متأزم نفسيا كونه يعتبر نفسه متعاليا مقارنة بأصحاب البشرة السوداء الذين يرى من خلالهم جسده الأبيض. وقد ساهم فانون في فتح أفاق جديدة للدراسات ما بعد الكولونيالية عبر كتابه الثاني "معذبو الأرض" Les damnés 1961 de la terre"، حيث عرض فيه رؤية الشعوب المستعمَرة لظاهرة الاستعمار والعنف الذي يخلفه فيها وهنا اهتدى فانون إلى طريقة لمواجهة الظاهرة الاستعمارية عن طريق العنف فهي الوسيلة الوحيدة التي يجب استخدامها لمواجهة الاستعمار والحد من سيطرته، " فإذا كانت تصفية الاستعمار تستلزم العنف، فلأن حياة المستعمَر مرهونة بفناء المستعمِر - لا فناء الأوروبي- ظهور المستعمِر كان مزامنا لموت المجتمعات الأهلية "Autochtone"، التي تعرضت لتدمير بنيتها الثقافية واضطهاد أفرادها، وعليه فإن حياة المستعمَر لا يمكن أن تظهر إلا من خلال جثة المستعمِر المتحللة...هذا العنف ايجابي ومثمر للمستعمَر... وكل فرد هو حلقة قوية في سلسة العنف المضاد الأول الذي مارسه

المستعمِر(فاطمة، 2016 ص ص 154- 155) ففانون برر العنف المضاد لتصفية الوجود الاستعماري الذي لم يترك أي خيار للشعوب المضطهدة للخروج من وضعيتها وبلوغ الحرية وفي الأخير يمكن اعتبار فانون من الرواد الأوائل الذين مهدوا للدراسات ما بعد الكولونيالية وساهم بجدية في فتح أفاق في هذه الدراسات للمهتمين.

- **جاياتر شكرا فورتي سبيفاك** (Gayatri Chakravorty ,Spivak):

ولدت بالهند في 1942، تشغل حاليا أستاذة بكلية الإنسانيات بجامعة كولومبيا (نيوينوك). تأثرت بفكر جاك دريدا وهذا ما انعكس على حضوره المتميز في أعمالها من خلال المنهج التفكيك الذي تبنته، تميزت أعمالها بارتباطها الوثيق بقضيتها الأساسية وهي الدفاع عن النسوية والأصوات المهمشة والصامتة في العالم ما بعد الكولونيالي، وهي من الرواد الأوائل للدراسات ما بعد الكولونيالية وظهرت أول كتابتها عن النسوية في العالم الثالث عام 1981 على شكل مقال تحت عنوان (الحركة النسائية الفرنسية في إطار دولي)، حيث عالجت فيه قضية علاقة كتابة التاريخ بالتعليم في إطار الوضع الاستعماري في بلدها الهند، ولاحظت سبيفاك مدى تعرض التاريخ للعنف الايبستيمولوجي وجعله خادما للقوى الامبريالية الاستعمارية البريطانية في المنطقة، حيث أعيد تشكيل التاريخ الهندي المكتوب بقلم المستعمر بطريقة أُريد منها تشكيل التاريخ الاستعماري لخدمت القوى الإمبريالية ومصالحها في المنطقة وجعل تلك الشعوب مجرد توابع خاضعة لإيديولوجيتها (بن علي، 2018، ص 65).

وقد تميزت سبيفاك بدراستها الرزينة عن مفهوم التابع Subaltern، الذي تعود أصول استخدامه الأول إلى القرن السادس عشر، فقد كان التابع يومها يعبر عن رتبة تعني العريف في الجيش البريطاني دون رتبة الضابط، وهو من يتبع الأوامر وفق سلم التراتبية العسكرية ثم استخدامه بعد ذلك المفكر الإيطالي "أنطونيو غرامشي" Antonio Gramci، في كتاباته السياسية للإشارة إلى الفئات الأقل مكانة في مجتمعاتها، أكانت فئة إثنية، أو دينية، أو جنسية، أو عرقية...إلخ ليستقر بعدها مصطلح "التابع" على الفرد الذي يعيش ضمن مجموعة مهمشة غير قادرة على التعبير عن حاجاتها ورؤيتها ولا حتى كتابة

تاريخها الخاص.(ربوح ودعيش، 2018، ص 245) وقد استثمرت سبيفاك في هذا المصطلح وجعلت منه منطلقا لأبحاثها عن الأفراد المهشمين تاريخيا بسبب الوجود الاستعماري الغربي في بلدانهم.

- **هومي بابا**: مفكر هندي ولد في 1949، وقد سافر إلى بريطانيا حيث واصل دراسته العليا هناك، واشتغل مدرس في جامعة هارفرد وترأس فيها مركز الدراسات الإنسانية، ومنذ 1980 استقر في الولايات المتحدة الأمريكية، واهتم بالنقد الثقافي والدراسات ما بعد الكولونيالية حيث تأثر بفكر إدوارد سعيد وسايره في مشواره العلمي الحافل في الجامعات الأمريكية، بالإضافة إلى مرجعيته الفكرية الأساسية التي استمدها من المدرسة الفرنسية التي تتشكل من أسماء فكرية كبيرة على غرار لاكان وفوكو وجاك دريدا، وساهم هومي بابا في تفعيل الدراسات الثقافية بعد صدور كتابه الأساس "موقع الثقافة" "The location of culture" سنة 1994 - سنة بعد صدور كتاب "الثقافة والإمبريالية" لادوارد سعيد- فكتابات بابا "تهدف إلى إعادة موقعة من يحلل الإنتاج الثقافي، فاتحا فضاء جديدا وزمنا جديدا للنطق النقدي، حيث يعيد الاختلاف الثقافي الإفصاح عن محصلة المعرفة من منظور موقع الأقلية الدال الذي يقاوم إضفاء الطابع الكلياني دون أن يكون محليا أو خصوصيا، والذي يمكن منه إنتاج أشد أشكال الثقافة استنطاقا ومساءلة.

وإعادة تقويم كامل للحداثة وما بعد الحداثة وما فهيما من عمليات حيال بنى القوة المتواضعة ضمن آلياتهما في الهيمنة" (بابا، 2004 ص11) فقد بين بابا في هذا الكتاب (موقع الثقافة) كيف استطاع أفراد المجتمعات المضطهدة - من قبل الفكر الكولونيالي- أن يقاوموا تلك الثقافة الدخيلة فرضها هذا الأخير - الكولون- وفي هذا الإطار تم إنتاج أشكال جديدة للثقافة تتجاوز ذلك الوضع المتأزم بين المستعمر والمستعمَّر فهومي بابا على خلاف سبيفاك التي تنفى إمكانية التكلم للتابع، فإنه يرى إمكانية إعطاء الصوت للتابع وإمكانية اللقاء بين المستعمر والمستعمر عن طريق ما يسميه الهجنة الثقافية.

4ـ إسهامات إدوارد سعيد في الدراسات ما بعد الكولونيالية:

سوف نحاول فيما يلي أن نبين مكانة/ موقع سعيد في حقل الدراسات ما بعد الكولونيالية حيث نستعرض من خلال ثلاثة محطات أساسية نستهلها بالسيرة الذاتية وهموم المنفى والهوية التي عاشها، ثم نعرج على الخلفية الفكرية التي نهل منها لبلورة مشروعه الفكري النقدي، وفي المحطة الثالثة والأخيرة نتطرق إلى المكانة الأساسية التي يتمتع بها سعيد داخل حقل الدراسات ما بعد الكولونيالية ونبين كيف استطاع أن يساهم في التأسيس لهذه الأخيرة عبر نقده للخطاب الاستشراقي.

ـ إدوارد سعيد وهموم الهوية: كانت حياة المفكر الفلسطيني إدوارد وديع سعيد منقسمة بين ضفتين عربية/شرقية وأمريكية/غربية واستطاع أن يتعايش مع العالمين وفي نفس الوقت يخلق عالما خاصا به - خارج المكان- وقد وثق ذلك في كتابه المسمى "خارج المكان". ولد بفلسطين في عام 1935 - فلسطين التي كانت منبع إلهامه وموطنه المسلوب- وبين أزقتها عاش طفولته، ولكن سرعان ما شد الرحال إلى مصر للإقامة مع عائلته وذلك بسبب الاستعمار الإسرائيلي لدولة فلسطين بعد 1948، وهذه الحادثة التي دفعته إلى الهجرة من موطنه خلقت في كيانه شرخ وحزن كبيرين حيث عبر في عدة مناسبات عن الألم الذي عاشه قائلا:" وكل ما أمضينا وقتا أطول في القاهرة كنت أحلم بفلسطين رغم أن الإقامة في فلسطين كانت مؤلمة لأنها كانت مؤقتة وعابرة وهذا ما أثبته الزمن فيما بعد" (سعيد، 2008، ص 30) في صغره تلقى سعيد التعليم في تسعة مدارس متنقلا بين فلسطين ومصر، أما مرحلة شبابه فكانت بين مصر والقدس وتردد أيضا على لبنان وكانت مصر البلد الذي عاش فيه سعيد كثيرا في تلك المرحلة وفيها أتم دراسته الثانوية بكلية فيكتوريا بالقاهرة عام 1953.

وبحكم تجنس أبيه بالجنسية الأمريكية ما مكنه من السفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية في سن مبكرة ليكن له الحق في التجنس بالجنسية الأمريكية، وعند وصوله إليها واصل دراسته الجامعية بجامعة برينستون بالولايات المتحدة الأمريكية وحصل فيها على شهادة ليسانس في الأدب عام

1957 ، وفي جامعة هارفرد واصل دراسته العليا ليتحصل على شهادة الماجستير عام 1960 ، وفي نفس الجامعة استمرت رحلة دراسته التي كللت بشهادة الدكتوراه عام 1964. وبعد مشوار دراسي حافل بالنجاحات اشتغل أستاذ بجامعة كولومبيا وأستاذ زائرا ومشاركا في عدة جامعات عالمية.

اكتسب سعيد شخصية مركبة بين كل هذه الضفاف ولازمته هذه الشخصية الهجينة طوال حياته، مما دفعه إلى طرح العديد من الأسئلة التي لم يلقى لها أجوبة في ظل حياة الترحال والمنفى التي عاشها وقد عبر عن ذلك القلق الهواوي قائلا " وصلت إلى النتيجة أنه أمامي خيارين كانت الأسئلة "ماذا أنت؟" أليس سعيد اسم عربي؟ هل أنت أمريكي ... كيف تعيش هنا وأنت ولدت في القدس، أنت الطبع عربي لكن أي عربي، بروتيستانت" (سعيد، 2008 ص15) واصل سعيد الحديث عن حالته النفسية الحرجة " قضيت خمسين عاما لأتعود على "إدوارد" أو بالأحرى بدا لي أني معدوم الشخصية، كنت دائما خائفا، غير واثق من نفسي، عديم الإرادة" (سعيد، ص13) هذا الاسم المركب ادوارد/الإنجليزي وسعيد/العربي جعل منه يواجه في سن مبكرة محنة فقدان الهوية ولم يكن ليشفع لأمه التي اختارت اسم إدوارد الإنجليزي لابنها تيمنا باسم أمير بلاد الغال الذي كان اسمه لامع السمعة في تلك الفترة.

لقد عاش إدوارد سعيد في غربته معركة وجودية لفرض الذات والهوية العربية الفلسطينية التي شكك الكثير هناك بوجودها في كيانه، فقد ذكرت الباحثة المصرية "سامية محرز" في مقال لها مشاهد لها مع إدوارد سعيد وهم حول مائدة عشاء أقيمت على شرفه في مطعم بمدينة إثياكا في و نيويورك عام 1986، " أثناء العشاء، يخاطبني سعيد بالعربية... مجرد دردشة، ولكن الدردشة تطول أتحرج من أن الموجودين معنا لا يفهمون. يستمر هو في الحديث. يصمتون، ينصتون بانتباه منبهرين أخيرا، أفهم يتحتم عليه هنا أن يثبت أنه عربي. عليه أن يبرهن أنه من "هناك" إنهم يشككون في انتمائه، ينزعون عنه فلسطينيته ويسائلونه عن هويته. ها هو قد أخرسهم يصمتون ينصتون" (محرز، 2003، ص29)، بهذه الطريقة الرزينة يرد ادوارد سعيد على المشككين في انتمائه العربي/الفلسطيني، هذا الانتماء الذي دافع عنه في مسيرته النضالية

عندما كان عضو في حركة فتح الفلسطينية وعبر كتاباته الفكرية والنقدية المختلفة.

ـ الخلفية الفكرية لادوارد سعيد:

نهل إدوارد سعيد معرفيا ومنهجيا من عدة منابع فكرية، وهذا ما جعلنا نصنفه من بين المفكرين الذين يصعب فهم توجههم الفكري دون الرجوع إلى هذه المراجع الفكرية والفلسفة التي مدته بأدوات معرفية ومنهجية للتعرية عن الخطاب الاستشراقي الكولونيالي. ولقد تعددت المراجع الفكرية التي استمد منها سعيد قوته الفكرية والنقدية بتعدد الفلاسفة والمفكرين والأدباء والمدارس الحاضرة في ثنايا مؤلفاته "وعلى الرغم من أن هناك العديد من المفكرين الذين دخلوا في نسيج سعيد الفكري وتركوا بصماتهم عليه، مثل غرامشي وفانون ووليامز ولوكاتش وفوكو وأدورنو وغيرهم. فإن حضور كل واحد من هؤلاء في مسيرة سعيد، اختلف حسب مراحل إنتاجه الفكري" (غزول، 2005 ص93).

فهؤلاء المفكرين استعان بهم سعيد في مرحلة من مراحل رحلته الفكرية وذلك حسب حاجته إليهم المنهجية والمعرفية، مشكلة شبكة متقاطعة متناسقة من المناهج والنظرية المعرفية التي رسمت ملامح براديغم فلسفة سعيد النقدية. فكانت مدرسة فرانكفورت النقدية أول هذه المشارب المعرفية التي نهل منها إدوارد سعيد عبر تأثره بروادها الأساسيين انطلاقا من أدورنو ومرورا بوالتر بن يامين وصولا إلى هاربرت ماركيوز.

حيث كان حضور أدورنو بقوة في السيرة الذاتية لادوارد سعيد فهو الذي عاش ويلات المنفى مثله وقد وصفه قائلا إنه "الضمير الإنساني لمنتصف القرن العشرين" الذي:"كان مهيئاً لأن يصبح منفياً قبل ذهابه إلى أمريكا، بل إنه بعد عودته منها، العام 1949، ظل وإلى وفاته، يعيش حال المنفي، ودون أن نتغافل، هنا عن أطروحة أدورنو عن نفسه حول الأوطان المؤقتة باستمرار التي يشير إليها سعيد في تأملات حول المنفى (الوليد، 2010، ص345)، ويعتبر والتر بن يمين الشخصية الثانية من رواد مدرسة فرانكفورت الذين تركوا بصماتهم في فكر سعيد حيث أنه يعتبر من المفكرين القلائل الذين انتبهوا إلى دور الاستنساخ الصناعي في القضاء على الفن الراقي، كون أن الآلات الجديدة

التي ظهرت قد غيرت صورة الفن ومفهوم الجمال وسوقته بصورة مخالفة لأصله التقليدي النقي، بذلك أصبح الفن مستنسخ ومشوها. فهنا نجد التقارب مع ادوارد سعيد الذي يرى في الأعمال الأدبية الاستشراقية أنها شوهت الجمال الحقيقي وعبرت عن جمال قبيح مغاير للواقع وسوقت لأفكار تلغي الغيرية. أما هاربرت ماركيوز صاحب كتاب "الإنسان ذو البعد الواحد" فقد كان تقاطع أفكار سعيد معه كبير خاصة في فكرة قدرة الفن على إحداث بٌعد ثوري ضد الوضع السائد، وكذلك دور الموسيقى في التعبير عن رفض القهر والحرمان والدعوة إلى التغيير.

يعتبر الفيلسوف ميشال فوكو المحطة الثانية الأساسية التي نهل منها سعيد، فقدم له الوصفة المنهجية لنقد الخطاب الاستشراقي والكشف والتعرية عن علاقة المعرفة بالسلطة، وقد عبر سعيد عن إعجابه بفوكو مثنيا على ارثه الفكري الغزير قائلا أنه: " انبثق عن خليط ثوار وغريب من التيارات الجمالية والسياسية الباريسية، التي أفرزت على مدى ثلاثين عاماً نخبة من الأعمال الباهرة لا ينتظر أن تتكرر لمدة أجيال" (سعيد 1985، ص281) فقد استثمر سعيد أفكار فوكو خاصة في كتابه الأساس الاستشراق الصادر عام 1978 فأعماله عن مفهوم السلطة والخطاب كانت سندا قويا له، "فإذا كان ميشيل فوكو استطاع أن يبرز تحول الخطاب إلى سلطة عبر مجموعة من القنوات التي تبثها الدولة في مختلف مؤسساتها لتشكيل الذات وفق إيديولوجياتها المسبقة وتثبيت سيطرتها، فإن إدوارد سعيد استلهم بدوره هذا الإبداع المعرفي الفوكوي، واستثمره في توصيف كيفية تحول الخطاب الاستشراقي الغربي المتدثر بالتعالي والإقصاء للآخر إلى تقاليد ناجزة، ومسلمات قبلية يتشربها كل منتمي للثقافة الأوروبية دون أي تشكيك أو مساءلة" (الجرطي، 2017 ص6). ويبقى فوكو من الركائز الأساسية التي استلهم منها ادوارد سعيد قوته النقدية رغم أننا نجد تراجع حضوره في مؤلفاته اللاحقة على غرار الثقافة والامبريالية.

والمحطة الثالثة التي استمد إدوارد سعيد منها أدواته المنهجية هي التيار الماركسي واليساري حيث يعد الفيلسوف جان بتيستا فيكو صاحب كتاب

" Scienza NUOVA" "العلم الجديد" (1725)، من بين الفلاسفة والأدباء الذين مهدوا له الطريق في الحديث عن المنفى، ويمكن القول أن اهتمام سعيد بفيكو يظهر جليا في البعد الدنيوي الذي ينادي بيه إدوارد سعيد وتقاطعه مع فيكو الذي يهتم بالسياق التاريخي لتطور الحياة البشرية في العلم الجديد الذي يوظف فيه الفيلولوجيا - علم أصل الكلمات- ليربط بين الحسي المعيشي والنظري - الفلسفي- فالانطلاق يكون من المعيشي التاريخي للصول إلى المجرد والعلم. فسعيد يرد النصوص التاريخية إلى لحظتها الأولى أي الظروف التاريخية التي نشأت وظهرت فيها، لفهم تلك الظاهرة في طابعها الدنيوي أي الانطلاق من الملموس الدنيوي للوصول إلى فهم تلك الظاهرة (العلم)، فهذه المنهجية تتقاطع مع منهجية فيكو في العلم الجديد. كما نجد الفيلسوف الايطالي انطونيو غرامشي الذين نبه سعيد إلى دور المثقف النقدي في المجتمع وقد كانت أفكاره حول العلاقة بين العرق والاستعمار، والدولة الاستعمارية ملهمة للعديد من المفكرين المهتمين بالفكر ما بعد الكولونيالي، حيث استثمر علماء مركز الدراسات الثقافية المعاصرة أفكاره في تحليل التكوينات السياسية المعاصرة في أوروبا.

وقد انتبهت أيضا مجموعة دراسات التابعية لأهمية غرامشي فقدمت من خلال أفكاره أدوات منهجية للمؤرخين الهنود لتنقيح النظريات القومية القائمة والتشكيلات الاجتماعية ما بعد الكولونيالية، وكذلك وجد مؤرخو جنوب إفريقيا ودول أمريكا اللاتينية في أفكار غرامشي سبيل إلى التفكير في مضمون وركائز الدولة الكولونيالية وما بعد الكولونيالية (آنيا، ص ص 54- 55)، لقد كان فكر غرامشي ملهما قويا لادوارد سعيد حيث رافقه في رحلته النقدية للكشف عن طابع الهيمنة في للخطاب الكولونيالي/ الاستشراقي، ولقد " استفاد سعيد من أفكار غرامشي، خاصة في بلورته لتصوره حول طبيعة المقاومة الثقافية فالخطاب الكولونيالي هو في جوهره خطاب الهيمنة على الآخر، ليس في الواقع المادي فحسب لكن في عالم الخطاب، ذلك أن احتجاز الآخرين في منظومة تمثيلية اختزالية هو نوع من الهيمنة عليهم، حيث يغدو هذا الخطاب منظورا إليه من زاوية الهيمنة، تجسيدا

للهيمنة الغربية" (بن علي، ص44)، ففكرة الهيمنة استثمرها سعيد للدفاع عن الشعوب المسلوبة ثقافيا وجغرافيا فسعى إلى نقد القوى الكولونيالية المهيمنة عبر نظرتها الدونية وخطابها الاستعلائي، ودعى سعيد إلى مقاومة ثقافية من أجل المحافظة على الذات الأصلانية وتحريرها من قيود الكولونيالية.

5ـ نقد الخطاب الاستشراقي والتأسيس للدراسات ما بعد الكولونيالية (مواجهة تهديدات الأمن الثقافي)

يعتبر مشروع ادوارد سعيد من المشاريع النقدية المبنية على أسس متينة حيث مهد له عبر دراسة رزينة للمؤسسة الاستشراقية التي تضم كم هائلا من الدراسات حول الشرق ولتجاوز هذا العائق الابستيمولوجي المتمثل في استحالة الإلمام بكل هذه الدراسات اهتد إدوارد سعيد إلى الاستثمار في الأدوات المنهجية التي اعتمدت عليها العلوم الإنسانية والاجتماعية الحديثة، ولمحاصرة موضوعه الشاسع (الاستشراق) اتجه ادوارد سعيد إلى التعامل مع الاستشراق بوصف (خطابا)، "بمعنى أن الاستشراق هو نظام خطابي محكم ومتماسك في غاية التنظيم، أوجده نسق من القواعد الخطابية، التي تبرز علاقة المؤسسة السياسية في الغرب بإنتاج المعرفة، وتوزيعها، وتنظيمها، وهي العملية التي لا تكاد ترى بالعين المجردة، وبل كانت تتخفى خلف حيل خطابية، وقوانين خاصة بالخطاب ذاته" (بن علي، ص76). فهذه الآلية الجديدة التي اهتدى إليها إدوارد سعيد عبر نقد الخطاب الاستشراقي استمدها من فوكو حيث أعطى مفهوما جديد للاستشراق على انه خطاب ينظر للمعرفة على أنها سلطة، وهذه الأخيرة تسعى إلى الهيمنة عبر إنتاج آليات قمعية تعزل الآخر وتضعه في خانة اللا مفكر فيه فهو لا يعدو أن يكون إلا مجرد فرد نشفق عليه، وقد بين سعيد في كتابه الاستشراق هذه الحيل الخطابية التي خلقت عالم شرقي مغربن Occidentalisé، هذا الأخير (الشرقي) الذي سعى الغربي لتمثيله، هذا لأنه لا يستطيع تمثيل نفسه على حد تعبيرهم، وهنا يظهر تهديد الأمن الثقافي - للشرقي- الذي اعتبره الغربي على أنه عديم الشخصية/الهوية.

عرف الاستشراق على أنه كلمة مشتقة من "(شرق) منه قيل أن الاستشراق هو علم الشرق، أما المستشرق فقد عرف على أنه " من تبحر في لغات الشرق وآدابه" وقد قدم سعيد تعريفات عدة للاستشراق منها أنه نوع من الإسقاط

الغربي على الشرق وإرادة حكم الغرب للشرق... أسلوب في التفكير مبني على تميز متعلق بوجوب تبادل المعرفة بين الشرق و الغرب...وهو ليس مجرد موضوع سياسي أو حقل بحثي ينعكس سلبا باختلاف الثقافات والدراسات أو المؤسسات، وليس تكديسا لمجموعة كبيرة من النصوص حول المشرق...وإنما هو توزيع للوعي الجغرافي إلى نصوص جمالية وعلمية واقتصادية واجتماعية ولغوية" (سعيد، 2011، ص11). منه فإن تعرف سعيد للاستشراق مبني على تلك الدراسات العميقة التي تخترق النصوص الاستشراقية للكشف عن ما ورائيته، حيث يقول: "إن ما سعيت إليه في "الاستشراق" لم يكن مجرد تقديم قراءة نقدية لمنظور الحقل واقتصاده السياسي، بل أيضا الموقف السياسي - الثقافي الذي يجعل خطابه ممكنا وقابلا للبقاء إلى هذا الحد...

بذلك يكون الاستشراق في نظري، بنية شيدت في زحمة تنافس إمبريالي كثيف مثلت تلك البنية جناحه المهيمن فانشقت، لا كمهنة بحثية، بل كإيديولوجيا متحزبة. هذه هي الأشياء التي كنت أحاول إظهارها بالإضافة إلى القول بأنه ما من مبدأ نظامي، ولا بنية معرفة، ولا مؤسسة إبستيمولوجيا تستطيع ــ أو استطاعت من قبل ــ التحرر من مختلف التشكيلات الثقافية ــ الاجتماعية والتاريخية والسياسية التي ترسم فرادتها الخاصة على الأحقاب" (سعيد، 1992، ص10) فنظرة سعيد للاستشراق نظرة فريدة استطاع من خلالها أن يلفت انتباه المختصين في حقل الدراسات ما بعد الكولونيالية، حيث نبههم إلى دور الخطاب الاستشراقي في زرع الهيمنة على الآخر الشرقي وجعله تابع لثقافة الكولونيالي ومهدد أمنه الثقافي بالسيطرة على تلك الجغرافيا الواسعة من المعمورة.

يأتي سعيد في مقدمة محللي الخطاب الكولونيالي، فهو من رواده الأوائل الذين ولجوا هذا الحقل واستطاع أن يقدم لنا تصورا نقديا فريدا عبر دراسته للخطاب الكولونيالي، من خلال كتابه الأساس الاستشراق، هذا الكتاب الذي يعتبر "بمنزلة نقد مضاد لكل النزاعات الأصولية في فهم الثقافة والأدب والنقد، حيث اختار لهجومه موضوعا من بين أكثر الموضوعات الشائكة في الفكر الغربي حول الشعوب الأخرى، وهو الدراسات الاستشراقية" (بعلي

2007، ص15) ففي كتاب الاستشراق انطلق سعيد بتعريف الشرق محددا مدلولاته الحضارية، أما مصطلح الاستشراق فقد عرفه في ضوء المفاهيم اللغوية والعلمية والأكاديمية والتاريخية والمادية. وبعد ذلك، انتقل سعيد إلى استعراض تاريخ الاستشراق الغربي في مساراته العلمية والاستعمارية عبر محطات ثلاثة، انطلاقا من الاستشراق الفرنسي، ومرورا بالاستشراق الانجليزي، ليصل في أخر المحطة إلى الاستشراق الأمريكي الذي عرف ازدهرا كبيرا بعد الحرب العالمية الثانية التي خرجت فيه الولايات المتحدة الأمريكية منتصرة ومستحوذة على نصيب أكبر من الثروة الاقتصادية العالمية، وقد كانت النظرة الادواردية للاستشراق نظرة ثاقبة حيث فضح من خلالها الخطاب الاستشراقي الذي يخضع إلى أوامر المؤسسة الاستشراقية التي تنتج معرفة تسع من ورائها إلى تحقيق أهداف توسعية/استعمارية/ وإمبريالية.

اختلفت نظرة سعيد إلى مفهوم الاستشراق عن باقي المهتمين به، حيث سعى إلى تجاوز النظرة الكلاسيكية التي جعلت من المستشرقين كمفكرين يهتمون بكل ما هو شرقي وفق منهج فيلولوجي، فقد انتبه سعيد إلى الخطاب المتواري وراء النصوص الاستشراقية فعمل على فضحها وكشف النقاب عن الرسائل الاستعلائية/ الاستعمارية/ الامبريالية المبثوثة في هذه الأخيرة، فتعامل سعيد مع النص الاستشراقي على أنه خطاب Discours منتج لمعرفة يسعى من خلالها إلى التحالف مع المؤسسة الإمبراطورية، التي تمثل السلطة المغذية للفكر الاستشراقي حيث تستفيد من مخرجاته في فهم واقع (المتربول) وذلك بهدف تسهيل عملية السيطرة الاستعمارية والإمبريالية في تلك الرقع الجغرافيا الشرقية.

خاتمة:

مما سبق يمكن القول أن إدوارد سعيد من الرواد الأوائل الذين وضعوا اللبنات الأولى لحقل الدراسات ما بعد الكولونيالية، وذلك خاصة بعد صدور كتابه الأساس" الاستشراق" سنة **1978**، وكذلك كتاب "الثقافة والامبريالية" اللذان يعتبران نصا مفتوح وخصب للمفكرين الذي أتوا بعده للاستثمار فيهما من اجل المضي قدما في بلورة حقل الدراسات الثقافية. وقد عمل إدوارد سعيد على مواجهة الثقافة الغربية بشراسة عن طريق فضح تهديداتها للأمن الثقافي لدى الشعوب العربية الإسلامية التي عانت من ويلات الاستعمار الغربي الذي مهد له المستشرقين عبر كتابتهم المختلفة وقد كشف ادوارد سعيد عن تلك العلاقة المشبوهة بين المؤسسة الاستشراقية والإمبراطورية الاستعمارية التي اعتمدت على تلك التقارير الشبه عسكرية التي أتت في قالب أدبي قصد فهم ثقافة الشرقي وتسهيل عملية طمسها ومحوها من الوجود واستبدالها بثقافة غربية (حادثية)، وقد دعى إدوارد سعيد إلى تجاوز هذا الخطاب الغربي الاستشراقي الاستعلائي واستبداله بخطاب إنساني متجاوز لكل الحدود وعابر للوجدان.

لم يسلم ادوارد سعيد من الانتقادات فقد ظهرت أسماء كبيرة ناقشت أفكاره وردت عليه ووصلت إلى حد انتقاد أطروحته، على غرار سلمان رشدي صاحب كتاب "آيات شيطانية" وهومي بابا وسبيفاك وآخرون، وقد انتبه ادوارد سعيد إلى تلك الانتقادات وعمل على الرد عليها في كتاباته اللاحقة على غرار "القلم والسيف" والثقافة والإمبريالية"، ويبقى اسم إدوارد سعيد منقوش في سجل حقل الدراسات ما بعد الكولونيالية بحروف من ذهب يصعب على الذين يأتون من بعد تجاوز أفكاره، فهو الذي اعتبره جمهور المفكرين على أنه نص مفتوح يمكن استدعائه واستثماره في كل نازلة ثقافية وسياسية تحدث في العالم.

قائمة المراجع:

باركر، كيرس. (2018) معجم الدراسات الثقافية، مصر: دار رؤية.

بن الوليد، يحي. (2010). الوعي المحلق، ادوارد سعيد وحال العرب، مصر: دار رؤية للنشر.

بن علي، لونيس. (2018). إدوارد سعيد من نقد خطاب الاستشراق إلى نقد الرواية الكولونيالية (كيف نؤسس للوعي النقدي)، الجزائر: دار ميم للنشر.

الجرطي، محمد . (2017). إدوارد سعيد من تفكيك المركزية الغربية إلى فضاء الهجنة والاختلاف، إيطاليا: دار المتوسط.

ربوح، البشير، دعيش. (2018). الاستشراق والاستعمار والإمبريالية، دراسات في ما بعد الكولونيالية، مصر: دار رؤية.

سعيد إدوارد . (2008). في المكان الخاطئ مذكرات إدوارد سعيد، سوريا: دار الفردق.

سعيد ادوارد. (2006). الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، مصر: دار رؤية.

سعيد ادوارد. (2011). خيانة المثقفين، النصوص الأخيرة، سوريا: دار نينوى.

لومبا، آنيا. (2013). الكولونيالية وما بعدها، سوريا: دار التكوين.

النجار، مصلح. (2008). الدراسات الثقافية ودراسات ما بعد الكولونيالية،الأردن: دار الأهلية.

هومي، بابا. (2004) موقع الثقافة، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

بوالسكك، عبد الغاني. (2021). الظواهر السائلة في فلسفة زيجمونت باومان -العيش في زمن الخوف واللاأمن-. المجلة الجزائرية للأمن الإنساني. العدد 01، ص 8011-828.

بوسعدية، وهيب، حمود، صبرينة. (2017). الأمن الثقافي دراسة في المفهوم والمهددات. مجلة الباحث للدراسات الأكاديمية. العدد 11، ص 376-390.

جبوري، غزول فريال. (2005). أثر فيكو على إدوارد سعيد، ألف؛ مجلة البلاغَة المقارنة. العدد 25، ص 209-225.

حفناوي، بعلي. (2007). أفاق الأدب المقارن العالمية في تصور النقاد إدوارد سعيد. مجلة عالم الأفكار. العدد 4، ص 07-42.

ديلمي، فاطمة . (2016). تفكيك الخطاب الكولونيالي وإسقاط الأقنعة - قراءة في فكر فرانز فانون. مجل تطوير. العدد 03، ص 162-178.

سعيد، إدوارد. (1985). ميشل فوكو 1926-1985. الكرمل مجلة الاتحاد العام للكتاب والصحافيين الفلسطينيين، العدد 15، ص 282 - 288.

سعيد، إدوارد. (1992). تمثيل المستعمَر: محاورو الأنثروبولوجيا. مجلة الكرمل. العدد 44، ص 4-28.

محرز، سامية . (2003). ما لم أقله لإدوارد. مجلة الأدب. العدد 11، ص 28-33.

Ashcroft, Bill, Griffiths. (2006). Post-colonial studies (The key concepts), USA and Canada: Rutledge editions.

Matthieu Renault, Frantz Fanon- une critique postcoloniale du primitivisme, Actes du colloque international Frantz Fanon. Algérie. Alger, les 6 et 7 juillet 2009.